الكراسة البابلية

يسري خميس

١ ــ كان عليه أن يفرّ
من قبل أن ينشره السلطان بالمنشار
لأنه اقترح :
أن توضع الاشياء في موضعها
فضّل بطن الارض عن ظهرها
وصار في نهاية السرداب
غزالة واسعة العينين
عند باب السهروردي المقتول .

٢ ــ أين مظفر ؟

هذا البطل الاخضر
الطالع من جمتار النخل الى الرب
الهائم في بلدان الرمل على وجه القمر المتقلب
أرض ترفعه أرض تضعه
المتلفع حزنه
الصارخ في البرية : الحق أنا
والحق هنالك كالحق هنا .

٣ ــ أخبرني :

بأنه قابله في جزر اليونان
يحتسي الخمر ، ويبكي ــ يلعن السلطان
ويغنّي ....

٤ ــ قابلته هناك عند أم فاسم
التي قد أرسلت لي ليلة السفر :
الخبز ، من قمح الجنوب ، صنع يدها
واللبن الرائب
والفواكه التي أنضجها البستان قبل الموسم .

٥ ــ قابلته هناك في مجزرة المدينة
وكان طيّب الوجه ــ كما عرفته
جميعهم هناك طيّبو الوجوه
يعملون في ايقاع هادىء مغلف بالصمت والدخان
مباركون بالدم الساخن والمياه الجارية
ولحم البقر الذي ما زال ينتفض ...

٦ ــ قابلته هناك في بيروت

من قبل أن تصير الارض ، مجزرة
للاخوة الاعداء

من قبل أن تصير الارض ، متجرة
للاخوة العملاء

من قبل أن تصير الارض ، مقبرة
للاخوة الفقراء

٧ ـ رأيته يشقّ نهر دجله
يملأه بالماء من منبعه الى مصبه
يعطيه اتجاهه الصحيح
يحفر للفرات جسد الارض
يضاجع النهر
ويشتل العشب على الوديان
والقمح والنعنع والزيتون
ويطلق الماشية الطيّبة العيون ...

٨ ـ رأيته هناك يملأ الاهوار بالمياه الساكنة
والسمك الصادق والخضّير
والبوص والاحراش
ويصنع القوارب التي يحتاجها الفقراء .

٩ ـ ثم دعا الرب ليسقط المطر
. . . .
وسقط المطر
المطر المانح للحياة
المطر الذكر .

١٠ ـ وبعدها استراح
في البحر
اختفى ....

١١ ـ لم يرتفع دجلة هذا العام
فليس فيه ماء طيّب
وليس فيه خير
ماء يخاف من شطئانه
يهرب للمصبّ ، ناظرا للخلف
توشي مياهه بنفسها !

١٢ ـ كانت مجاعة مروعة
يأكل فيها الناس كل شيء
الامعاء والاظلاف والكلاب
كان ضبابا
مثل ذلك الذي يغلّف المجازر
وابتدأ البشر
يأكل كل منهم لحم أخيه حيّا
أو ميّتا .

١٣ ـ وهؤلاء
لا يسمعون غير صوتهم
ولا يرون غير لون واحد لخضرة الشجر
يفتقدون القدرة الفطرية السليمة
لأن ترى تعدد الالوان
ويلعبون بالصلصال مخمورين
يصنعون جيلا مرعبا من الاطفال
صاروا رجالا فجاة في العاشرة !!

١٤ ـ والسيد صافي العينين
المسؤول عن الحاضر والمستقبل
الراعي الحامي المقتدر الجبار المتكبر
يغتصب المرأة في القارب بالليل
لا يسمع صوت نشيج المرأة
يسمعه النهر ، وتشهد ضده
كل الاسماك وأعشاب الماء .
بعد شهور تسعه
ولدت تلك المرأة ، قمرا
يكشف كل فضائحهم .

١٥ ـ تكاثروا
وانتشروا في الارض
يسرقون غرس اجيال من البشر
يقتسمونه هناك بينهم
ويأكلونه
اللعنة !
اللعنة التي ليست مقدسة
لآكلي نبات الآلهة ، وثمر البشر .

١٦ ـ منفصلون عن تاريخهم
لا يلمسون غير قشرته
ولم يذوقوا لسعة الحمض وطعم الثمرة
وان حاضر البطانة
ممتلىء بالاكل والرصانة
لدا : ليس لهم مستقبل
سوى الضياع في الرمال
والانقراض كالماموث
في الصحارى الواسعة .
يؤجلون بالسلاح ، موعد الانفراض !
يا خيبة النفط ، وسوء الطالع .

١٧ ــ يا أيها النهر الذي خلقتنا
أطلق النواح
يا سمك المستنقع الساكن
أطلق النواح
يا أيها السهل الحبيب
أطلق النواح
ويا حقول القمح والزيتون
أطلقي النواح
ويا ملايين المعيز السود
أطلقي النواح
يا أمّي الطيبة العجوز
أطلقي النواح
يا امرأة لا تملك الرغيف
أطلقي النواح
ويا فتاه ذبحت . لأنها أحبّت
أطلقي النواح
ويا عشائرا تسحق بين فكّي الحزبين
أطلقي النواح
يا غيم يا أمطار يا سحاب يا سماء
يا زرقة تلفّنا ، يا شجرا يشهد
يا رياح .... أطلقوا النواح .

١٨ ــ الراعي الطيب في يده المزمار
وقلب ممتلىء بالدمع
يغنّي حقل القمح قطيع من أغنام خضر
يغنّي شجر اللوز وشجر الاجاص
يغنّي الشاي الحلو
يغنّي المرأة والطفل
يغنّي الحرية ...

١٩ ــ رأينه مهرولا وغاضبا وهادرا كالبحر
تسقط من أقدامه القارات
يجري الى الجنوب
يوقظ الرياح
في يديه السيف .
فاجأهم يقتسمون الماء
في حرم الحسين
« سوقا يصير بيت الله
جعلتموه أيها الكلاب
مغارة اللصوص
في الارض والسماء ملعونون
يا بني الحيّات والافاعي » .
وقلبَ الموائد الخضراء
والاسهم والسندات
والفضة والذهب ــ فوق رؤوسهم
« ما جئت ألقي عليكم سلاما
بل السيف يفصل ... »

٢٠ ــ لملم ما تبقى من مياه :
الماء الضائع في الصحراء
الماء الخائف تحت جسور النهر
الماء الساكن في جسد المستنقع
الماء الراقد في أعماق القلب
الماء الرائق في قاع الاعين
الماء الصامت والماء المقهور
الماء الغاضب
الماء الصاعد في أغصان الشجر المثقل
الماء النازل في الجذر المبتل
الماء الكامن في طبقات الجسد الارض
فذف به في النهر .

٢١ ــ وطاردوه
أطلقوا الحراس والكلاب خلفه
تبحث عنه في صحارى العرب الواسعة الجلباب
فتشوا خطوط النفط والنخيل
فتشوا المقاهي
وفتشوا سنابل الشعير والبيوت
فتشوا ملابس الاطفال
لا أثر
سوى الاغاني السرية
التي تهدر في بيوت الفقراء كالفيضان .

٢٢ ــ كان هناك في مقام السهروردي
يصلّي
يدعو ربه أن ينقذه !
حوله غزالة جميلة واسعة العينين
مرت أمامهم جميعهم
ودخلت في جذع نخلة هناك
عند شط العرب الفسيح .. اختفت
في الخضرة المترية الكثيفة
وفي سباط البلح الثقيل ، قبل النضج .

جزيرة في بحر الشمال / القاهرة ١٩٧٨